الأستاذ ألبير أديب

حين احتجبت مجلات الأدب فى مصر بدءًا من الثقافة، فالرسالة، فالمقتطف، فالكتاب، شعرت بوحشة تملك علىّ أقطار نفسى، وجفت موارد الإلهام فى خاطرى؛ إذ لاأجد الحافز الدافع للنتاج، مادام النشر مُوصَد الأبواب، وقد بقيت الهلال تصدر شهرية كعهدها، ولكنها انتقلت من الخاصة إلى العامة، بمعنى أن البحوث الأكاديميّة أصبحت ثقيلة الهضم فى وضعها الجديد، وهى لاترحب بالبحث المتسلسل ذى الحلقات المتوالية، كدأبها فى عهدها السالف، وقد أولانى مدير تحريرها الأستاذ طاهر الطناحى مزيدًا من عطفه، فكان يتكرم بنشر ما أرسله، وهو فى أعماقه يأسف لوضع الهلال الجديد، لأن الطناحى قد عاصرها فى أخصب عهودها الزاهرة، ثم اضطر إلى مجاراة الوضع الجديد، فخضع لماجدّ آسِفًا غير سعيد.

وفى إحدى جلسات دار الهلال دار الحديث بينى وبين الأستاذ إبراهيم المصرى على انحسار المجلاّت الأدبيّة المتخصصة، فشكوت له غربتى بعد الرسالة، فقال: إن مجلة الأديب بلبنان تحكى مجلة الرسالة فى أمور كثيرة، وهى ترحب بالبحوث المستفيضة، وستسر بها إذا تابعتها، وكنت أعرف أن معهد الدراسات العربية يضم مجموعة من مجلة الأديب، فبدا لى أن أقضى يومين فى مراجعتها، وارتحت إلى طابعها الأدبى كثيرًا، فصممت على أن أوالى قراءتها شهريّاً، ودفعت بمقالٍ لى إلى صاحبها الأستاذ ألبير أديب، فمالبث أن نشر المقال، وأهدانى المجلة شهريا، فواصلت الكتابة فى شغف، وبدأت أنشط.

مميزات الأديب:

ولقد لاحظت أن مجلة الأديب عالمية الذيوع، فهى تنشر لجميع الأدباء شرقًا وغربًا، وقد أقبل شعراء المهجر وكُتَّابه على النشر بها حين احتجبت مجلاتهم العربية هناك، فكانت صلة وثيقة بين الشرق والغرب، كما رأيت المجلة تفرد أبوابًا للبحوث العلمية الجديدة، والاكتشافات الحديثة، وتعنى بما يجد فى عالم السياسة فتنشر أخبارًا موجزة فى خاتمتها عن أهم مايشغل المسرح السياسى، كما أن ماينشر تحت عنوان مكتبة الأديب يدل على أمثلة من المؤلفات الحديثة، تعرض عرضًا مشجعًا فى حين، وناقدًا فى حين آخر، وهذا غير أبواب القصة والقصيدة والمقالة والبحث العلمى، أما باب البريد الأدبى فيشمل ردودًا مقتضبة أو مطيلة على أفكار نشرتها الأديب، واتسع المجال لمناقشتها وهذا الباب يذكر (بالبريد الأدبى) بمجلة الرسالة، ولكن مع فارق واضح، لأن باب الرسالة كان خاصا بالنقد والتعقيب المخالف، أما باب مجلة الأديب فقد اتسع كثيرًا لما يجب أن يضيق عنه، إذ أولع نفر من الأدباء بنشر ما يصل إليهم من رسائل التقريظ المتبادل، أو التشجيع العاطف، وبعض هذه الرسائل مجاملات اضطرارية يكتبها الأديب الكبير حين يُفاجأ بكتاب أرسل إليه، فلا يجد من اللائق أن يهمله، بل يكتب رسالة مشجعة لصاحبه، وكان من حق الرسالة أن تُطوى مادامت لاتحمل مضمونًا فكريا هاما، ولكن من أرسلت إليه يودّ أن يقرأ الناس ما قيل له، ولا فضاء يتسع غير باب البريد فى مجلة الأديب.

أذكر أنى كتبت للأستاذ ألبير أديب أعلن له مايجب من إهمال هذه الرسائل، لأنها ليست ذات موضوع، وقد ردّ الأستاذ علىَّ قائلا: إنه يعتقد أن الصواب فيما أقول، ولكنه يجد من الحرج المتواصل مايدفعه إلى نشر مالا يرغب فى بعض الأحيان، ثم قال: إن قارئ الأديب إنسان ناضج، وأنه سيدرك لامحالة ما أعانيه من الحرج وسيغفرلى، وهنا نجد الفارق بين الأستاذ الزيات فى الرسالة، والأستاذ أحمد أمين فى الثقافة، وبين الأستاذ ألبير أديب فى الأديب، فالأولان متشدّدان لايعبآن بتشجيع من لايستحق، والثانى غفور رحيم.

افتتاحية الأديب:

جعلت أنشر فى الأديب على اتصال غير منقطع منذ عرفت طريقها، وقد أبطأت شهرًا واحدًا، وتبعه شهر آخر، فوجدت الأستاذ الكبير صاحب المجلة يرسل إلىَّ برقيّة يقول فيها: «حجزت لك افتتاحية العدد القادم»، ولا أدرى لماذا هزتنى هذه البرقية هزا، لأنى أعرف قدر نفسى جيدًا، وأعلم أن مقالى ليس من القوة بحيث يسأل عنه صاحب المجلة، وينص على أنه حجز الافتتاحية، ولكنى من ناحية أخرى صممت على أن أواصل المجلة شهريا بدون انقطاع، وإذا كنتُ أزهريا أحتفل بمسائل التاريخ الإسلامى، فإن الأستاذ قد فسح لى المجال، وقد ذكر فى خطاب له أنه يرحّب بالبحوث التاريخية، وأن على أن أواصل البحث بدون أن أتلكأ، أذكر هذا لأرد على من اتهموه بالطائفية بغيًا بدون حق، فالأديب الأصيل دائمًا إنسان لايعرف التعصب، وما رزئت الأقلام إلاّ بفئات من الطغام ينتسبون إليها زورًا وبهتانًا، وهم عن الإخاء الراحم بمكانٍ بعيد.

وقد عانى الأستاذ كثيرًا مما يعترضه فى هذا الطريق، أذكر أن أستاذى الدكتور عبد الحسيب طه قد أهدانى كتابه (أدب الشيعة)، وهو رسالة علمية نال بها درجة الأستاذية فى الأدب والنقد، فكتبتُ بحثًا تحليليا عنها، وبعثتُ به إلى مجلة الأديب، ولكنى تلقيتُ رسالة من صاحبها تعلن أن الحديث فى مجلة الأديب عن الشيعة يفهم منه بعض الناس أن الثناء عليهم ذم لسواهم، وقد صُودِرت بعض الأعداد من مجلة الأديب فى بعض الأقطار لهذا الفهم البعيد! ثم نصحنى أن أنشر هذا البحث بمجلة العرفان اللبنانية لأنها خاصة بالبحث الأدبى بنوع عام، والأدب الشيعى بنوع خاص! وقد عجبتُ لما ذكر الأستاذ، لأننا فى مصر بعيدون عن هذه الحساسيات!

هذه واحدة، ولها ثانية تشابهها، فقد أرسل إلىَّ الشاعر اللبنانى الكبير الأستاذ (فارس سعد) ملحمة شعرية رائعة تحت عنوان (طوفان النور)، وهى من القوة تصويرًا وتعبيرًا وفكرًا بحيث تضع صاحبها فى مصاف الكبار من أعلام الشعر

المعاصر، وقد قرأت الملحمة معجبًا، وكتبت عنها بعض ماتستحق، وأرسلتُ ماكتبت إلى مجلة الأديب، لأن الأستاذ فارس سعد من كبار شعراء لبنان، ومن أفذاذ شعراء مجلة الأديب بالذات، ولكن الأستاذ ألبير أديب بعث بالمقال معتذرًا عن عدم نشره، لأن الملحمة تتضمن هجومًا على قوم إن لم يذكروا بأسمائهم، فهم معروفون بأوصافهم وملامحهم، وسيؤوّلون القول كما يشاءون، وفى مقدورهم أن يسيئوا لمجلة الأديب، ولم أجد بُدا من نشر المقال بمجلة «المنهل» السعودية؛ لأن الأستاذ الكبير عبد القدوس الأنصارى لايرى مايرى صاحب الأديب، فهو يصدع بالحق بدون قيد.

اعتراض وردّ:

ولا أدرى لماذا لم أسكت عن هذا الاتجاه، حيث أرسلت إلى الأستاذ أقول له: إن كل الناس يعلمون أن مجلة الأديب لاتعبر عن وجهة رئيس التحرير وحده، بل تفسح صدرها للرأى المخالف، وصاحب المقال هو الذى يتحمل تبعته مادام منشورًا باسمه، وفى هذا الفهم الواضح مايمنع مؤاخذة صاحب المجلة، ثم أفضت فى هذه المعانى إفاضة شافية، فجاءنى رد سريع من الأستاذ يقول فيه: إن جميع ماقلته فى خطابى مُسَلَّم به، بل بدهى لايحتمل الشك، ولكن مايصنع صاحب المجلة حين يجد الأعداد تُصادَر فى عدة دول؟ وهى فى وضعها الراهن لاتغطى نفقاتها إلا بمجاهدة جاهدة، إن الذى يحنى رأسه للعاصفة قد لايكون شجاعًا، ولكنه قد يتلافى الموت ليواصل النضال، وهذا أحسنُ من وجهة نظرى!. هذا بعض ما قال.

رثاء زوجتى:

انتقلت زوجتى إلى رحمة الله، فأرسلت عدة قصائد فى رثائها جاوزت العشرين، نشرتها تباعًا بمجلة الأديب، على مدى عامين، ثم تلقيت من صاحبها كتابًا يقول: إنه حائر فيما يقول لى، لأن قصائد الرثاء المتوالية تدل على لوعة حارة، وزفرة ملتهبة، وكان الظنّ أن مرور الوقت سيطفىء قليلا من هذه الجذوات

المشبوبة، لذلك يرى مع إعجابه الفنىّ بما يكتب أن أحاول الصبر قليلاً، والله معى.

ولا أدرى لماذا فهمت من الخطاب فهمًا آخر، فهمت منه أن القصائد قد فترتْ فى مضمونها الفنّى، وأن صاحب الأديب قد عبّر عن ذلك بلباقة حصيفة، فكتبت أشكره على اهتمامه بحالتى النفسيّة، وأعلن أنى فهمت نقده الصائب، ولمحت بوادر الإخلاص فيما كتب فاقتنعت به، فجاءنى رد عاجل من الأستاذ يقسم أنه لم يقصد ما استنتجته إطلاقًا، وأنّ ما أقوله جميعه فى مستوى واحد، بل إن القصائد الأخيرة بها مايفوق القصائد الأولى فناً وإتقانًا، وإن لديه رسائل عدة من القراء تثنى على هذه القصائد، ولم يشأ أن ينشرها لكيلا تدعونى إلى معاناة نفسية فأستمر فى عذاب الألم كما يتصوّر، أما إذا كان الاستمرار مصدر تنفيس عن هذه المعاناة فهو يدعونى إلى الاستمرار مُرَحِّبًا، وكان خطاب الأستاذ بردًا وسلامًا على نفسى.

حىّ بن يقظان:

جاءنى خطاب من الأستاذ يدعونى إلى كتابة فصل عن القصّة الأندلسية (حى بن يقظان) لمؤلفها الفيلسوف الشهير ابن طفيل؛ لأن قارئًا عزيزًا قد كتب إلى المجلة يسأل عن هذه القصة، طالبًا أن تنشر الأديب بحثًا تحليليا عنها، ولم يشأ أن يعلن السؤال بالأديب، كيلا تتعدد الأسئلة من هذا الطراز، ولايجد من يُجيب عليها بإفاضة شافية، فتقع المجلة فى الحرج، وكان من بواعث التوفيق أن مقال (حىّ بن يقظان) مخطوط لدىّ، كتبته فى كتابى (الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير) ولم أنشره بعد، فسارعت بإرساله إلى المجلّة، وقد تلطف صاحبها فبعث بخطاب شاكر، ووعد ألا يرهقنى بمثل هذا الطلب، قائلا: إن البحوث المفروضة تكلّف الكاتب رهقًا، لأنه يبدأ من نقطة مجهولة، أما البحوث النابعة من تفكير الكاتب نفسه فتجد طريقها ممهدًا من خواطره، وتلك وجهة نظر لها صوابها، وأذكر أن الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد قد ذهب إلى مايخالفها، إذ

obeikandi.com

ذكر فى بعض مقالاته بمجلة الهلال أنه يسرّ بالمقال المقترح سرورًا زائدًا، لأنه يفتح أمامه باب البحث عن موضوع لم يكن يفكر فيه غالبًا، فيكسب خبرات جديدة فى اكتشاف عناصر الموضوع، وكثيرًا ما تؤدى هذه الخبرات إلى غيرها، فتتولد بحوث جديدة هى ثروة للكاتب والقارىء معًا، هذا ما قاله العقاد، ولكن من الذى له طاقة العقاد العلمية، ومقدرته النفسيّة، وشجاعته الرائدة فى اكتشاف المجهول؟!

سرقة واضحة:

نشرت مجلة الأديب قصيدة لشاعر عراقى وجدت معانيها جميعها مأخوذة من قصيدة للشاعر الكبير الأستاذ محمود حسن إسماعيل، يقول فى مطلعها:

مرّت على النهر وقالت له ـ وموجه فى خشعة السّاجد:
يانهر، قاسمنى الأسى مرة وهات أخبارك عن عابدى
طال على الشّجو من بُعده والصمت من قيثاره الزاهد
نبى أحلامى وشادى الهوى بمعجزات النغم الخالد
أضاقت الدنيا بتغريده فطار عن موطنه الجاحد؟
ام راح يلقيه فيمضى كما مرّ الصدى بالكفف الهامد؟
يانهر، أسمعنى حديث الهوى وهات عن بلبلى الشارد

والقصيدة تحكى قصة تتوالى مواقفها مشهدًا خلف مشهدٍ، ولم يزد الشاعر عن أنه نظم القصّة بألفاظ تقرب من ألفاظ الأستاذ محمود حسن إسماعيل، ولم يأت بجديدٍ مّا يشفع له فى هذا السطو، وتوقعت أن ينشر الأستاذ ما أراه من نقد هادف، فالمسألة موضوعية لاذاتية، لذلك بادرت بإرسال مقال يكشف هذا الاختلاس الجرىء، ولكن الأستاذ ألبير صاحب القلب الرقيق، كتب إلىّ يقول: إنه صُدِمَ صدمة عنيفة من هذا السطو القبيح، ولكنه علم من بعض زائريه أن الشاعر مريض جدا، وقد اعتزل فى مستشفى خاص بحيث لايزوره إلاّ قلة من

obeikandl.com

أقاربه، ويخشى حين ينشر نقده أن تصل إليه المجلة بطريق ما، فيتضاعف ألمه فى هذه المحنة، لذلك يؤثر أن يحتفظ بالمقال حتى يعاود المريض شفاءه. ولم تمض أسابيع حتى لحق الشاعر بربه، فحمدت للرجل الكبير رقته الحانية، وطلبتُ منه أن يهمل النشر، مع أنه حق أدبى لا اختلاف عليه، ولكن هذا ماكان.

حرب لبنان:

قامت الحرب الأهلية بلبنان، فحجبت الأديب عن الظهور لمدة عام وأكثر، ثم استطاع صاحبها أن يعيد إصدارها على فترات متقطعة باذلا أقصى الجهود المضنية فى أداء رسالتها، وقد صادف أن توقفت المجلة وأنا بالسعودية، ثم جئت إلى مصر فاستأنفت صدورها، ووصلت أعدادها إلىّ بالسعودية تباعًا بدون أن أعلم، ثم علمت مصادفة باستئناف ظهورها، فأرسلت إليها مقالاتى الجديدة، وأخبرت الرجل بانتهاء بعثتى للسعودية، فأرسل ماسلف من الأعداد إلىّ، ثم صعب الأمر عليه، فكان فوق احتماله أن يوالى الإصدار. . . ودهمته العلة، ففارق الحياة تاركًا أحسن الذكرى لدى أصدقائه ومريديه؛ إذ كان مثلا نادرًا فى صفاء النفس، وسعة الصدر، وأداء الواجب.

* * *

الأستاذ كمال النجمى

بدأ الأستاذ كمال النجمى حياته الأدبيّة شاعرًا مبكرًا، حيث نشر بالصحف أوليات شعره فى سن الرابعة عشرة، ومازال يقرض الشعر حتى بلغ عهد الشباب، ثم انقطع فجأة عن النّظم، مع أنّه نال الجائزة الأولى فى مسابقة الشعر بمجمع اللّغة العربيّة عن استحقاق جدير، ومن يبلغ هذا المبلغ الفنى الرائع، ثم يصمت فجأة لابّد أن يترك أكثر من سؤال..

لقد كنتُ أقرأ للأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه اللّه الدواوين الشعرية التى تقدّمت لنيل الجائزة، إذ كانت عينه حينئذ تشكو الرمد، وكان شعر الأستاذ كمال يسبق سواه سبقًا جليا، فآثره على غيره، ثم مضى إلى رفيقيْه اللّذين كانا يشاركانه الحكم، فلم يختلف الأمر بل كان الاتفاق مجمعًا عليه، لأنّ سبق الشاعر كان من الوضوح بحيث لايُزاحَم، ومن قصائده الرائعة بالديوان قصيدة (يقظة النيل)، وقد ابتدأها شاكيًا عهد الغفوة قبل الصحوة فقال:

دهى النيل ليلٌ فاستطال هُجوده ... وأورث جنبيْه كلالا رقودُهُ

بساتينه باتت نواعس حوله ... وأغفت بها أطياره ووروده

فلا صادحات الأيْكِ فيه صَوادِحٌ ... ولا الورد لذ النفح ريان عوده

ولا النبت مطراف على الأرض يانع ... قشيب ولا صوب الربيع يجوده

ولا النخل مزهو من العجب ناهض ... على النيل سمر فارعات قدوده

ولا النيل تأتيه إذا نصل الدجى ... صباياه يملأن الجرار وغِيدُهُ

والقصيدة أكثر من سبعين بيتًا تنحو هذا المنحى البحترى الرائع، وأقول البحترى لأن السلاسة العذبة، مع رقة التصوير تشهدان للشاعر بأنه ينتمى لمدرسة البحترى التى انتمَى إليها كبار الشعراء فى هذا العصر، وكان من العجَبْ العاجب أن يصبح كمال بعد هذا السبق (مازنيا) يهجر الشعر نظمًا، لانقدًا، لأنه تمشق سلاح الناقد إلى هذه اللحظة محاربًا مايسمّى بشعر التفعيلة، ومقالاته فى الهلال، وفى مجلة المجلّة، وفى مجلة العالم العربى، تجمع هذه النقدات الهادفة، ولعلّه يضمها فى مؤلف خاص، لتكون صوت النذير.

سبب الهجران:

وقد جعلت أسأل عن هجر الشاعر لفنّه، حتى علمت أن حالة نفسّية قد صدمته، فامتنع، إذ كان الشاعر ينشر قصائده فى الصفحة الأولى بجريدة الأهرام، فى المكان البارز الذى ينشر فيه الجارم، ومطران، وعلى محمود طه، والأسمر، وكان الأستاذ أنطون الجميّل يراه فى شبابه الباكر يشير إلى مستقبل مرموق فى دنيا الشعر، فيحرص على تقديم شعره فى أسطع معرض، وأول ما نشره الأستاذ كمال النجمى بالأهرام قصيدة فلسطين التى مطلعها:

علت صيحة كالرعد دوًّى هزيمها ... تحامى صداها واتّقاه غريمها
ألّمت بأسماع الطُّغاة فزلزلت ... وحز قلوب المؤمنين أليمها
هفت من فلسطين إلينا فنبهت ... نيامًا قلاها كهفها ورقيمها
تقاعس عنها حين ضيمت وليها ... وأسلمها للحادثات حميمها

والقصيدة تتجاوز الخمسين من الأبيات بهذه القوة المتماسكة، والانفعال المتوهّج، ومازالت قصائد الشاعر تشرق بالصفحة الأولى بالأهرام، حتى رحل الأستاذ الجميّل إلى جوار ربه، وخلف بعده من تنكّر للشعر بعامّة، فلم تعد الجريدة المرموقة تحتفى بهذا الفن الأوّل من فنون العرب، وضاق النجمى بما صادفه من نكران لم يكن فى حسابه فابتأس.. هذا ماكان.. ولا أدرى كيف ناء تحت

obeikandi.com

هذه الأزمة، ولم يتجاوز الأهرام إلى سواها، مع أنه نال جائزة المجمع بعد رحيل الجميّل، لقد كتب لى مُفصحًا عن هذا السبب، حين سألته عن امتناعه المباغت! وله نظراء قد هجروا الشعر بعد سبق، كالمازنى، والرافعى وشكيب أرسلان، ولكلّ علّة خافية تحتاج إلى إفصاح.

بدء الصّلة:

كنت أقرأ مايقع فى يدى من آثار كمال النجمى، وقد كان من التواضع بحيث يرمز إلى توقيعه كثيرًا بدون إفصاح، وقد كتب سلسلة من الخواطر النقدية والاجتماعية بإمضاء (ابن زيدون) فى جريدة يومية، وعرفت أنه الكاتب لأنه أشار إلى قصيدة كتبها والده الشاعر المظلوم ـ علىَ فَضْلِه الكبير الأستاذ محمد حسن النجمى فى تحية صديقه الشاعر إبراهيم الدباغ، والقصيدة من محفوظاتى الخاصة، فأدركت حلا للغز (ابن زيدون) ثم عنّ لى أن يكون الشاعر الكبير الأستاذ محمد حسن النجمى موضع دراسة للماجستير بجامعة الأزهر، ولكن أين الديوان؟ لقد اهتديت إلى أن يذهب الباحث (الدكتور عبد الحميد شعبان فيما بعد) إلى الأستاذ كمال ليستعير الديوان مخطوطًا، وقد رحب الابن الوفى أكمل ترحيب، وأمدّ الباحث بكل ما طلبه عن حياة والده وشعره، حتى استوت الدراسة تامة ناضجة! ومن أطرف ما حيّرنى فى هذا المجال أنى قرأتُ للأستاذ كمال بمجلة العالم العربى فى الخمسينيات دراسةً مستوفاة عن والده فى مقال كاشف وضىء، فعنّ لى أن يعيره للطالب الباحث كى يكون بعض المراجع التاريخيّة عن الشاعر المدروس، ولكن الأستاذ كمال ذكر أنه لايعلم شيئًا عن هذا المقال، ولا يتذكر أنه كتبه، وهى عجيبة جدا فى رأيى، وأدعوه إلى أن يبحث عنه فلابّد أن يكون مخبوءًا فى مكان مُهْمل من الأضابير، لأنى قرأتُه واثقًا، ولو كنت أعلم الغيب لاحتفظت بالعدد.

وللأستاذ كمال حياء مفرط يدفعه إلى حساسية بالغة، فقد سمعته فى حديث إذاعى امتد إلى ساعة كاملة يتحدث عن نشأته الشعرية، وآثاره الفنيّة، فتكلم عمن تأثربهم من الشعراء، ولم يذكر اسم والده الذى ترك أربعة أجزاء من عيون الشعر

obeikandl.com

العربى الأصيل، وقد كتب عنه الأمير شكيب أرسلان متعجبًا أن لايدوّى اسمه فى آفاق العالم العربى كما دوت أسماء شوقى، وحافظ، ومحرم، ولعلّ من أسباب خفوت ذكره، أنّه كان ملتزمًا أشد الالتزام، فَوَجَّه شعره إلى اليقظة الإسلامية وأبطال الكفاح والنضال، واتخذ من مجلات النضال مذياعه المتواضع، فبرّز كل التبريز فى هذا المجال! لقد كتبتُ للأستاذ النجمى بعد سماع الحديث الإذاعى أسأله: كيف أهمل ذكر والده، فكتب يقول: والله إنّه كان يملأ خاطره أثناء الحديث، ولم يغب لحظة عن باله، ولكنه استحيا من ناقد جرىء يقول: مالنا ولأبيه! وأنا أقول للأستاذ كمال: إنك أوّل من يجب أن يؤلف كتابًا عن الشاعر الكبير، فأنت به أَدْرَى وأعلم، وللتاريخ حق عليك، أما أن يلغط لاغِطٌ بما يهذر، فليس لنا أن نقيم له وزنًا مّا، وقد علمت أن الدكتور عبد الحميد شعبان قدهيأ ديوان الشاعر للطبع، وسيرى النور عن قريب.

القلم الصوّال:

على أن هذا الحَيِىَّ الخجول ذو قلم صوال، لايملّ العراك، وفى أعداد الهلال المتوالية لذعات نقدية تدل على مقاومة صلبة لمن لا يَنْتَحُون منتحاه فى الشعر والفنّ، وأذكر أنه كتب مقالاً بعدد مارس سنة ١٩٨٩ من الهلال ينكر فيه شعر الرافعى والمازنى والعقاد وعبد الرحمـٰن شكرى لأنه يجمع بين الفلْسفة والشعر، فيستغلق على القراء، وقد أنكرت هذا الرأى إنكارًا شديدًا، وكتبتُ مقالاً فى معارضته، ولكنى وجدت الأستاذ كمال يبدأ مقاله بقوله تحت عنوان (الحب شعراً والحب نثرًا):

«إذا وجدت أيها الصديق القارئ تفاوتاً فى هذا الكلام فالسبب أننى لا أكتبه بل أمليه، ولست معتاداً الإملاء، فقد عشت سنين لاتحصى أكتب بيدى، وقد وضعتُ القطن على عينى الاثنتين، وفوق القطن الضماد، ورقدت، فقد مرضت عينى فجأة!» قرأت هذه العبارة ومابعدها، فشاركت الأستاذ ألمه، وطويت المقال، وبعثت أحد تلاميذى لزيارته سائلاً مواسياً، إذ لا أطيق لقاء مريض عزيز، ثم مَنَّ اللّه

على الأستاذ بالشفاء، وأنا أبحث الآن عن المقال لأنشره، ولكنه اختفى متحديا، ولا أستطيع أن أكتب مقالاً سبق أن حرّرته، لأن الفورة الأولى قد هدأت، وكانت مبعث جيشان وهدير.

جانب الفن:

لا أقول إن جانب الفنّ قد استولى على كمال النجمى لأنه رأس تحرير مجلّة (الكواكب) عدة سنوات، كما لا أقول إنّ جانب الأدب قد استولى عليه لأنه رأس تحرير مجلة الهلال عدة سنوات، فالأدب والفن قد استوليا على الأستاذ وهو يافع ناشئ، وإذا سجل ديوانه المطبوع بعض مانظم من الشعر، فإن مؤلفاته فى عالم الفنّ تحتل مكانتها المرموقة، ولم يقصر حديثه الفنى على عهد واحد، بل تكلم عن الغناء العربى فى القديم والحديث تكلّم البصير العارف، وحين ماتت المطربة الشهيرة (أسمهان) رثاها أبدع رثاء، وكانت قصيدته زميلة لقصيدة أخرى لعلى أحمد باكثير رثى بها أسمهان، وأذكر أنى حدثتُ الأستاذ كمال عنها فى خطاب خاص، فأرسل يطلبها، لأنه قرأها فى حينها ثم ضاعت منه، وقد أرسلتُها إليه، فكتب مقالاً عن مراثى أسمهان بعدد سبتمبر سنه ١٩٨٢ من مجلة الدوحة يتضمن من الذكريات الفنيّة مايدل على الكثير..

لقد تحدث الأستاذ النجمى عن الغناء فى كتب متوالية تحت عنوان، الغناء المصرى، سحر الغناء العربى، أصوات وألحان عربية، ومطربون ومستمعون، كما أفاض فى مقالات الهلال عن عبد الوهاب، وأم كلثوم، وفيروز، وفايزة أحمد، وسيد درويش، وغيرهم من أعلام الفن، وحديث الشاعر عن الفن لايشبه حديث المؤرخ الأكاديمى، لأن كثيراً ممن كتبوا فى مجال الدراسة العلميّة تخلوا عن مشاعرهم، ونسوا أنهم يتحدثون عن فنانين لاعن علماء، أما كمال فقد كان فنانًا فى حديثه، لذلك كانت كتبه تُستوعب بدون سأم، لايكاد يبدأ القارئ الصفحة الأولى حتى ينتهى إلى الصفحة الأخيرة فى غير انقطاع، وما تركه الأستاذ فى مختلف الصحف من المقالات، والدراسات يؤلف مجموعة أخرى من الكتب

الفنية، وفى متناوله أن يخرجها للناس، لتكون تاريخًا يُروى، تاريخًا مؤيدا بالوقائع، لأن بعض الكاتبين فى هذا المجال يخترعون.

حكايات الأغانى:

شغل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى جمهرة الدارسين على مَرِّ العصور، وفيهم من قام بتجريده، ومن قام بتهذيبه، ومن قام باختصاره، ولكل منحى فيما قصد، ولكنّ الأستاذ النجمى قام بنوع جديد فى خدمة هذا الأثر الضخم، إذ شاء أن يضم ما تناثر من أخبار الشاعر أو المطرب فى أبواب كثيرة تمتد إلى ما فوق العشرين جزءًا فى حيّز واحد، بحيث يقدم صورة وافية عن المتحدث عنه فيماسماه يوميات، وقد جاءت هذه التسمية موفقة، لأنها تضم الأحداث المختلفة متسلسلة فى اليومية الأولى، فالثانية، فالثالثة، حتى التاسعة، كما فى يوميات إسحاق الموصلى، وبهذا النحو من التأليف صار كتاب الأغانى سمرًا للعامة والخاصة، بعد أن كان وقفًا على الخاصة وحدهم، وهو جهد مستتر لايدركه غير من كابَدَ قراءة التراث فى مَنَازِعه المتباعدة، وحاول أن يجعل من أمشاجها جسمًا ملتئمًا متماسكًا! ولم يقف الكتاب عند أخبار المغنين والجوارى، إذ اتصلت الأحداث بالخلفاء والوزراء والولاة والشعراء، ولكل حدث دلالته التاريخيه والنفسيّة والاجتماعية، أذكر هذا لأقول: إنّ ضجة فى الصحف قامت حول كتاب الأغانى لأمد قريب، حيث شن بعض الكاتبين حملة على حفلات الطرب غير الملتزم بالجامعةً! وهى حملة صادقة لها ما يبررها، ولكن بعض ذوى الأهواء كتب يهجّن هذه الحملة مستندًا إلى أقوال أبى الفرج فى الأغانى استنادًا شرعيا لا أدبيا، وكأنَّ أبا الفرج صار أحمد بن حنبل أو الشافعى أو مالكًا أو أبا حنيفة، فكتبت مقالاً بجريدة الوفد أضع كتاب الأغانى موضعه الصحيح، فهو جملة أسماء وأحاديث وأشعار بعضها صحيح وبعضها مختلق، إنْ لم يكن أكثرها، وإذا جاز أن يكون أحد مصادر الأدب فلا يعقل أن يكون مصدرًا للأحكام الشرعية! كتبتُ هذا المقال، ولا أدرى لماذا توهم الأستاذ كمال أنى أنتقص كتابه كما أخبرنى بعض مَنْ حادَثَهُم فى ذلك، فالكتاب عملٌ أدبى جيد لاشبهة فيه، وما كتبتُ مقالى إلا نقدًا لمن يحاولون أن

يجعلوا أبا الفرج الأديب الراوية فقيهًا مُشَرِّعًا فيأتون البيوت من غير أبوابها، ولعلى أكون قد أوضحت ما أريد بدون التباس.

مع العقاد:

تحدث الأستاذ كمال النجمى فى مقالات كثيرة عن العقاد، والعقاد كالمتنبى ملأ الدنيا وشغل الناس، وللنجمى رأى فى شعره، سبق أن أشرت إليه بإيجاز، وقد قرنه مع المازنى الشاعر فى اتجاهه، وهذا ما أخالفه لأن للمازنى فى شعره رِقَّة وسَلاسة تنأى به عن صاحب الفكرة الفلسفية فى الشعر، كما أن هناك فرقًا بين المنطق العقلى والمنطق الوجدانى، وشعر العقاد وشكرى أقرب إلى المنطق الوجدانى، ولكن إحساسهما العميق يرتفع بهما عن المُشاهَد المألوف لدى الشعراء السطحييّن، وما أريد أن أستفيض فى ذلك الآن، ولكنى أذكر أن النجمى تحدث عن غراميات العقاد، فذكر أن صِلَتَهُ بمىّ كانت من طرف واحد، وهذا ما أميل إليه، لأن الآنسة مىّ لم تحب من صميم فؤادها غير جبران خليل جبران على تنائى داره، كما أخبرنى الأستاذ طاهر الطناحى بذلك، ولكن الذى لم أرتح إليه فى مقال النجمى عن غراميات العقاد ذكر بعض العلاقات الخاصة التى يحسن استتارها تكريمًا لذكرى الراحلين، وإن كان النجمى قد أدّى حق المؤرخ الصادق فى رأى من يميلون إلى التتبّع الدقيق والاستقصاء التام.

***

الدكتور محمد يوسف موسى

كان معهد التربية العالى للمعلمين بالإسكندرية يُقيم ندوات تنظمُ عدة محاضرات ثقافية يُدْعَى إليها كبار الأساتذة من الجامعات، فيلقون كلماتهم الموضوعيّة فى شأنٍ من شئون التربية والتعليم، ليعقبها نقاش هَادِفٌ تتمحص فيه بعض الحقائق، ثم تنتهى الندوة بعشاء متواضع، يقبل عليه المستمعون ليواصلوا سمرهم المؤنس فى هشاشة وابتهاج.

وقد دُعِيَ الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر فى موسم العام الثقافى سنة ١٩٥٠، ليلقى محاضرة شاء أن يكون موضوعها، «لِنَكُنْ قوةً تفعلُ لامادّة تنفعل» وهو موضوع ثقافى تربوى، لأنه عرض فى دقة شذوراً من تاريخ المسلمين حين كانوا قادة الأمم فى عصورهم الزاهرة، فأحدثوا فى العالم انقلاباً فكريا واجتماعيًا وسياسيا قفزت به الإنسانية أكبرقفزاتها فى طريق التقدم الحضارى، فكانوا بذلك قوة فاعلة، ثم انتقل إلى الحاضر المؤلم، فأوضح كيف صاروا يتلقون عن الغرب ما يحدث من أقوى مظاهر الاكتشاف العلمى، والابتكارالصناعى بدون أن تكون لهم مشاركة فى هذا الاكتشاف، فصاروا مادة تنفعل، ولم يُغفل تحديد الأسباب التى دعت إلى هذا التخلف، منتقلا إلى المجال التربوى ليبيّن أن الطفل فى مشرق حياته كالأمّة فى أولى خطواتها، لابدّ لهما من التقليد الواعى، فيقلد الطفل أباه الرشيد، كما تحاكى الأمة المتخلّفة من تقدّمتها فى ركب المدنية، حتى إذا بلغ الطفل أشده وكان صحيح التربية ترك التقليد إلى الابتكار، وكذلك تبلغ الأمة رشدها فتسهم فى بناء الحضارة تعطى وتأخذ. ثم ختم حديثه بقوله: « إن من الواجب ونحن فى نهضة

وطنيّة واجتماعية ألا يكون الواحد منا مادّة تنفعل بغيره، بل يجب أن يكون فى نفسه قوة تفعل لتؤثر فى سواه».

وقد قُدِّر لى أن أتولى تقديم المحاضر الكبير، إذ كنتُ إذْ ذاك طالبًا بمعهد التربية، واتحاد الطلاب هو الذى يدعو الحاضرين، وهو الذى يتولّى تقديمهم دون أساتذة المعهد، وكانت لى صلة ثقافية بمؤلفات الدكتور ومقالاته، كما كنتُ أعرف من تاريخه العلمى دقائق قد تغيب عن غيرى، فعرضت إلى نبوغه فى التأليف موجزًا الإشارة إلى اتجاهاته العلميّة، ثم انتقلت إلى الحديث عن درجة دكتوراه الدولة التى نالها الدكتور من جامعة السوربون بباريس، وكان ممّا قلت:

«لقد شهدت قاعة «ريشيليو» الكبرى بجامعة السوربون مناقشة فلسفيّة لرسالة علميّة كتبها الدكتور محمد يوسف موسى تتضمّن بحثًا عن الدين والفلسفة فى رأى ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط. وكانت لجنة المناقشة مكونة من خمسة أساتذة من السوربون، والكوليج دى فرانس، وقد رأس المناقشة البروفسور ليفى بروفنسال، كما شهدها الدكتور طه حسين مع نخبة من دارسى العلم فى باريس عربًا ومسلمين، واستمرت المناقشة خمس ساعات كاملة ظفر بعدها الدكتور محمد يوسف موسى بأرقى درجة علمية تمنحها جامعة السوربون، وهى دكتوراه الدولة فى الفلسفة بدرجة مشرف جدا، ثم أعلنت الجامعة دعوة الدكتور محمد يوسف لإلقاء المحاضرات عن فلسفة التشريع الإسلامى باللّغة العربيّة».

وبعد انتهاء الحفل، أرسل الدكتور محمد يوسف من يدعونى للقائه، وسألنى عمن أخبرنى عن احتفال الدكتوراه بالسوربون، فقلت: إن الجرائد اليومية أشارت إليه فى مصر، وعنها قلتُ ماقلت، فابتسم شاكرًا، وطلب منى أن أسهر معه فى الفندق حيث يقم هذه اللّيلة، فقلت: إنى أرحبُ باللقاء وأعْتزّ به، ولكنك مجهد بعد هذه المحاضرة الدسمة، فقال: لقد ارتحت للقائكم ارتياحًا أزال عنى التعب، فهل تصحبنى؟ قلت: تلك فرصة علمية أغتنمها، فكيف أتخلّف؟

فى سكون الليل:

امتدَّ بنا الحديث طويلا طويلا فى هدوء الليل الساكن فى شتاء الإسكندرية، فخضنا فى مسائل كثيرة من مسائل الثقافة والتربية، وقد تحدث الدكتور عن البيئة الثقافية فى أوربا، وكيف أنّها تُساعد على تكوين الباحث تكوينًا مثمرًا سريعًا، وقال: إنه مثلاً حين يدخل قسم الدراسات الإسلاميّة بإحدى مكتبات الجامعة الأوربيّة باحثًا عن مسألة معينة، يجد من الفهارس المتعدّدة ما يُسرع بتحقيق رغبته فى أعجل وقت، كما يجد من القائمين على أمور المكتبة مَن يفهم الموضوع بوجه عام، فيشترك معه فى إعداد مايرغب من الكتب عن دراسة واختبار، وهذا فى مسائل إسلاميّة لاتحتل المكانة الأولى لدى أصحاب المكتبة، فما ظنك بفروع الطبيعة والكيمياء والفلسفة الأدب والتاريخ الأوربّى؟ وأنتَ لدينا فى مكتبات مصر لاتجد من الموظفين غير المتخاذل المثبط، وإذا طلبت كتابًا غير الذى فى يدك تضايق ونَفَرَ كأنك تكلفه بغير ما أعدّ له، هذا بالنسبة إلى الكتب، أما بالنسبة للأساتذة فسأذكر لك حادثة لها مغزاها، لقد أردت فى أوّل مقدمى إلى باريس أن أزور كبار المتخصصين فى البحوث الإسلامية من أساتذة جامعاتـها، فبـدأت بالأستاذ الكبير ماسّينون، وهوذ الشهرة المستفيضة فى مسائل الفلسفة وبحوثها، وحدثته تليفونيا عن رغبتى فى لقائه، فأبدى من السرور مالم أتوقع، وبادر بتحديد الموعد فى صبيحة الغد، فلما سعدتُ بلقائه انتظر معى قرابة ساعتين فى حديث موضوعى ينم عن رغبة منه مخلصة فى الإفادة والتوجيه، ورجانى أنْ أتكرّم ـ كما قال ـ بتكرار زيارته، ثم فوجئت بزيارته لى فى اليوم التالى بمسكنى المتواضع ليشكرنى على ابتدائى بزيارته، وفى صحبته عدة مؤلفات ومجلات تساعدنى فى مهمتى الثقافية، وكان من المصادفات أن أجد الأستاذ الدكتور طه حسين يزور باريس فى هذا الوقت، فأردت أن أسعد بلقائه، ليرشدنى إلى أوجه النشاط الثقافى بباريس كما يعلمها أحسن العلم، وعرفت موضع إقامته، فاتصلت تليفونيا بسكرتيره فأخبرنى أنه خارج الفندق، وعاودت الاتصال فقال السكرتير إنه جاء ليستريح لا لمقابلة الباحثين من الطّلاب! ولا أدرى لماذا أكثرت من المقارنة بين مسلك الأستاذ

ماسّينون ومسلك الدكتور طه حسين معى، وهى مقارنة تدل على الفرق الشاسع بين الروح العلمية لدى الأساتذة هناك والأساتذة عندنا.

قلت فى شبه اعتذار عن الدكتور طه حسين ربما كانت ظروفه الخاصة لاتسمح، فقال الدكتور محمد يوسف موسى: أفلا أقّل من رد جميل؟ ثم تطرق الحديث إلى كفاح الطالب المبتدئ فى مصر والشرق، فقال الأستاذ إن الطالب الطموح يكافح وحده بدون معين، وقد ضرب المثل بنفسه، فقال: إنه بعد تخرجه من الأزهر عمل محاميًا شرعيا لوقت ما، ولم يسترحْ لعمله، فأرادأن يكمل دراسته فى أوربا على نفقته الخاصة، وحين ضاقت به الأزمة فى الحرب العالمية الثانية حاول أن يجد من الأزهر ـ وقد التحق به مدرسًا فى بعض كلياته ـ من يسمح بانتظامه فى إحدى البعثات التى تنفق عليها الجامعة الأزهرية، فلم يجد أُذُنًا تصغى، واضطر إلى أن يدبر النفقات على حساب أسرته الخاصّة، وقد أعانه الله فَوُفِّقَ إلى ما أراد! وليس وحده فى هذا المجال، فهناك الكثيرون من أبناء الأزهر والجامعة المصرية يدرسون بجامعات الغرب بدون أدنى معونة ماديّة، وسيظفرون، لأنهم يقدرّون قيمة الوقت، ويعلمون أنهم يصارعون الأمواج بدون نصير غير رعاية الله.

مقال خطير:

انتهت الزيارة على أحسن ما يُرْجَى لها من التوفيق،وودّعت الأستاذ، وأنا أعتقد أنى كسبتُ صديقًا و أستاذًا فى آن واحد، وتبادلنا الرسائل فى إخلاص وحب، ثم حدث أن نشر الدكتور مقالاً خطيرًا بجريدة الأهرام عن السياسة التعليميّة بالأزهر، دَعَا فيه إلى أن يكون القسم الابتدائى بالأزهر مشتركًا مع المدارس الابتدائية بمصر، بحيث يختار طالب القسم الثانوى بالمعاهد الدينيّة من طلاب المدارس الابتدائية بعد أن تكثر بها المواد الدينيّة المناسبة،وذلك لكى يكون الطالب الأزهرى فى المرحلة الثانوية مهيئًا لدراسة لغة أجنبيّة ألمَّ بها من قبل، ومستعدا لدراسة الضرورى من فروع الثقافة المختلفة فيتساوى مع زميله فى

المدارس، ولا ينقطع إلى الدراسة التخصصيّة انقطاعاً تاما إلا فى مرحلة الكليات. ولم يكن الدكتور محمد يوسف موسى أول من أشار بذلك، فهى فكرة قديمة دعا إليها الأستاذ إسماعيل القبانى، والأستاذ أحمد حسن الزيات، وغيرهما، ولكنّ صدورها من أستاذ بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر قد أهاج عليه مجموعة كبيرة فى محيطه الأزهرى، وانتقلت المناقشة إلى صحف دينيّة تعتمد على الإثارة العاطفية والتهيج الخطابى بدون دراسة موضوعية، وفى كتّابها من يترك الموضوع إلى الحديث عن قائله فيرميه بسوء النيّة وخبث الاتجاه، ثم يقول إنه صنيعة مَنْ تلقى عنهم الفلسفة فى باريس! وهذا كلّه دَجَل غوغائى لايمت إلى البحث النزيه، إذ أن كل أزهرى حريص على جامعته ويعدّها مبعث فخره، بل كل أزهرى حريص على إصلاح معهده، فإذا تعدّدت وجوه الإصلاح بتعدد الدراسين، فلابد من الاستماع الجيد، والحوار الهادف، والموضوعية البريئة من الشطط والجموح.

لقد أزعجنى أن أقرأ بعض ما تورّط فيه المتسرعون بشأن الأستاذ، فعجّلْت بزيارته فى منزله بجزيرة الروضة، وكنت أظنّه ضائقًا بما قرأ، شاكيًا مالحق به من تهجم يتغلغل إلى الضمائر فى خفة طائشة، ولكن الأستاذ فاجأنى بابتسامه الهادىء، وثباته المطمئن، وقال: إنه قبل أن يكتب اقتراحه، كان يتوقع ما حدث، لأنه رَمَى بالحجر فى البئر فلابد أن يحدث اضطرابًا فى الماء، ثم غمره الروح الفلسفى، فامتد بالموضوع إلى آفاق إنسانية نبيلة، وأذكر أنه قال فى خاتمة حديثه: إنه إذا لم يجد أذنًا تسمع ما يقول وتستجيب، فحسبه أنه لفت الأذهان إلى ضرورة الإصلاح الأزهرى، إذ يجب على المسئولين أن ينظروا فى المناهج التعليمية بالقسم الابتدائى والقسم الثانوى فيضيفوا إليها ما يقرّب الطالب الأزهرى من ثقافة العصر، وإذا تمّ ذلك فلا اختلاف! قلت له: ولماذا لم تتجه هذا الاتجاه فى مقالك لتحفف من حدّة المعترضين؟ فقال الرجل: إن القوم نيام لايوقظهم الصياح المتّصل، فلابد من الإزعاج باقتراحٍ مدوٍّ يجلجل صداه حتّى يتجه المسئولون إلى التعديل والتحوير.

إلى كلية الحقوق بالجامعة:

لم تصفُ الحياة بالأزهر للدكتور محمد يوسف موسى بعد مقاله بالأهرام، فناوأ من لايُقدّرون حرية الرأى، وعدوه خصمًا لدودًا، وماهو به، وصادف أن عرضت عليه جامعة فؤاد أن ينتقل إليها أستاذًا مساعدًا بكلية الحقوق، فقبل العرض، وكان لذلك دوِىٌّ فى المحيط الثقافى عبر عنه الأستاذ أحمد حسن الزيات حين كتب فى مجلة الرسالة تحت عنوان (ثروة من ثروات الأزهر تنتقل إلى جامعة فؤاد) قائلا:

«قرر مجلس جامعة فؤاد الأول بجلسة ٣٠ يونيو تعيين الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أحد علماء الأزهر وخريج جامعة باريس أستاذًا مساعدًا للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق، وقد كان الأزهر أولى بهذه الثمار الناضجة التى تفتحت فى جوّه، وعاشت بروحه، وتعمقت فى ثقافته، ثم أخذت بنصيب موفور من العلم الحديث بلغته وفى موطنه، فاكتملت لها الأداة لتجديد البالى، وإصلاح الفاسد، وتقويم المعوج، مما كثرت الشكوى منه، وطال الجدل فيه من أنظمة الأزهر ومناهجه وكتبه، ولكنّ الأزهر ـ لأمر يعلمه الله ـ لايريد أن يغيّر ما بنفسه، ولايحب أن يعترف بالفضل لأهله، والكُفاة إذا لم يجدوا الإنصاف فى بيئتهم ومن عشيرتهم تَحَوَّلُوا إلى النظام المنصف، والعلماء إذا لم يجدوا الحقل مَهَّيأ للغراس تركوه إلى المكان الطيب».

بين الفلسفة والشريعة:

كان المظنون أن ينتقل الدكتور إلى كلية الآداب ليدرّس الفلسفة، التى نال فيها دكتوراه الدولة بباريس، وقد انتقل إلى كلية الحقوق ليدرّس الشريعة التى لم يؤلف فيها من قبل، ولكنه وهو العالم الأزهرى الضليع، لم يكن بعيدًا عن الحقل الجديد، وقد أثبت جدارته الفائقة حين بهر طُلابه بغزارة معارفه، وشمول نظرته، ثم أصدر من الكتب العلمية فى محيط الفقه الإسلامى ما سامَى به نظراءه من الأساتذة الكبار بكلية الحقوق، ولم يقتصر على النهج التقليدى المتّبع، بل دعا دعوات حرة إلى التجديد فى الاجتهاد والتحليل والتطبيق، وكان شجاعًا حين كتب

مقالاته الهادفة تحت عنوان (أزمة الفقه الإسلامى) التى تتمثل فى انصراف أُولى الأمر عن قوانينه، فيما تأخذ به المحاكم الأهلية من تشريع، ثم فى هذا الهجوم الملح المتكرر على من ينادون بتطبيق الشريعة الإسلامية وكأنهم يقترفون منكرًا ولا يأمرون بمعروف، ثم فى غفلة أساتذة الشريعة عن مجاراة الأسلوب العلمى المعاصر فى تدوين المواد التشريعيّة على النسق المتبّع فى كتب القانون الوضعى ذات الاستجابة الدقيقة إلى منهج التأليف العلمى المعاصر، كما أن هناك تعمدًا مقصودًا لإغفال ما يُسمّى بالفقه المقارن، إذْ يجب أن تنشر البحوث القانونية موازنة بين آراء التشريع الإسلامى، وأحدث ما اهتدى إليه أرباب القانون الوضعى لأن الكفة ستكون راجحة للفقه الإسلامى متى استقامت أدوات البحث، وخلصت النيات من الغرض، أمّا تدريس أصول الفقه على نحو يتجاوز ضيق المتون والحواشى إلى فضاء التحليل المتسع، والاستنباط الدقيق، فمما يتطلب جهودًا مشتركة، إذ تؤلف لجان علميّه لإعادة تحرير مادة الأصول كما دُوِّنت أُسسها فى كتب الفطاحل من أئمة المجتهدين، بعيدًا عن مؤلفات العصر المملوكى وما تبعه من عصور الجمود، ولم يكتف الأستاذ بالدعوة الملحة، بل بدأ النتاج العملى فأصدر بحوثًا مستقلة فى أهم فروع البيوع والمعاملات، وكان فى هذا المجال محققًا لآمال المخلصين، وعونًا يشد الأَزْرَ، ويضيء الظلمات.. وكم كانت فجيعة زملائه وتلاميذه فى رحيله العاجل أليمة قاسية، ولكنها سبيل مورود...

* * *

الأستاذ طاهر أبو فاشا

أظرف مَن اشتهروا بالظرف ممن شهدنا فى هذا العصر، فقد اجتمعت له حلاوة الروح، وسرعة البديهة، وبراءة النفس، فإذا قصد إلى المعابثة فهى التى تسر ولا تسيء، وذكاؤه من النوع اليقظ الذى يلمح المكمن المستتر فى الفكرة الغامضة فيسلط عليها الضوء، لتتضح دون لبس، فى بساطة لاتكلّف معها، وهو بهذا الذكاء يحيل المسألة العلمية المعقدة إلى مايشبه القصّة الطريفة، وقد عهدنا أرباب النوادر يستثقلون البحوث الفكرية، ولكنّ طاهرًا كان فريدًا فى إتقان مسائل النحو واللّغة والصرف على نحو يدهش، وقد كان دائمًا من أوائل الطلبة المتقدمين مع قلة انصرافه إلى التحصيل، إذ يكفيه أن يستمع الدرس من الأستاذ ثم يعاود قراءته مرّة واحدة، ليظل مطبوعًا فى خاطره، فلا يحتاج إلى تحصيل جديد، ولك أن تعجب حين ترى طاهرَ أبا فاشا لايترك سهرات الأندية الليلية كل مساء مع فريق من أدباء جيله، ثم يأتى الامتحان فيفوق من لاهَمَّ لهم سوى المذاكرة والتحصيل طيلة النهار وزُلَفًا من الليل على مدى العام الطويل.

وأذكر أنّ الأستاذ مصطفى صادق الرافعى قد قال عن الشاعر الفكاهى الظريف الأستاذ حسين شفيق المصرى رائد الشعر «الحلمنتيشى» فى مصر: «لو تقدّم به الزمن لكانَ نديمًا على بساط هارون الرشيد». وهو قول ينطبق على طاهر أبى فاشا كما ينطبق على حسين شفيق، بل ربمّا كان انطباقه على طاهر أتم وأوفى، لأنّه عالم، راوية، مؤرخ، ومجلس الرشيد كان يرحب بذوى الرواية والعلم كالأصمعى، فأبو فاشا أديب عالم نديم.

obeikandl.com

وناحية هامّة فى طاهر أُشير إليها، هى أنه كان ذا حساسية شديدة فيما يتعلّق بكرامته الشخصية، على غير المعهود ممن نعرف من ظرفاء عصره، فمحمد مصطفى حمام، وعبد الحميد الديب، ممن اشتهروا بالظرف والشاعريّة، ولكن حَمام كان يسأل أصدقاءه المعونة، فإذا لم يستجيبوا سكت وعف، والديب كان يلح ويلحف، فإذا وجد إعراضًا هجا وأسف، ولا يغنيه أن يُعطَى مرّةً ومرّة، بل يثقل حتى يغيظ، أمّا طاهر فكان سيّد نفسه، وكان من الوزراء والكبراء من يخلصون له المودّة والحب بدون أن يسمح لهامته أن تخفض دون هاماتهم، وهم يعرفون ذلك عنه، فيزدادون له إكبارًا، وبه إعجابًا، فهو مضرب المثل فى الترفُّع والإباء.

على أنّى ألحظ مشابهة كبيرة بين حافظ إبراهيم وطاهر أبى فاشا، فقد كان حافظ أمير الظرفاء فى عصره، يملأ المجلس طربًا وأنسًا، ويتهافت الأدباء على لقائه فى الندوات الخاصّة، ليظفروا بما يطربهم من الفكاهة الحلوة، والنادرة الرقيقة، ولكنك تقرأ شعره فتجده - إلاّ فى الأقل الأندر - بعيدًا عن الفكاهة الطريفة، متسربلا بلباس الجد الصارم، وكذلك طاهر أبو فاشا، يملأ المجلس فكاهة وطربًا، ثم تقرأ دواوينه الشعرية فتجد الفارق البعيد بين النديم والشاعر، ولعل الشاعريْن كانا يحسّان ألمًا دفينًا يحاولان التنفيس عنه فى مجالس السمر، فإذا خلا أحدهما إلى نفسه، وواجه الصمت الكئيب، والعزلة القاسية، غلبه أساه، وإذا كان الشعر الجيد لاينظم إلا فى الخلوة الهادئة، فإن روح الشاعر الحقيقية هى التى تسيطر عليه حينئذ، ولست أعنى أن الرجلين كانا يلبسان غير لباسهما فى مجالس السمر تزويرًا وتدليسًا، ولكنهما كانا يحاولان الهروب من الضيق المتأزّم، فلا يجدان غير التنادر والظرف، وهما ممتّعان بوسائلهما الأصلية من عذوبة الروح، وسرعة البديهة، وإتقان القفشات.

قصيدة مرحة:

ومن القلة النادرة التى تحمل رُوح الفكاهة فى شعر أبى فاشا (قصيدة بحر مويس) المنشورة فى ديوانه (راهب الليل) وبحر مويس يشق مدينة الزقازيق التى

كان أبو فاشا طالبًا بمعهدها الدينى، وقد زارها بعد رُبع قرن من أيام الطّلب، فتذكّر أمسه الغابر بالمعهد الثانوى، وطاف بخياله طيف أساتذته الفحول أيام كان أساتذة المعاهد الدينية شيوخًا أجلاَّء يقرءون الحواشى، ويشرحون المتون، ويتحدثون بالعربيّة الفصحى، كما تذكر حياة التقشف الزاهد التى عاشها الطُّلاَّب، إذ يكتفون بيسير الزاد، وأشهى ما يُطْعَمُونَهُ هو الأرز المفلفل ينصبُّ عليه الطلاب قبل أن يبرد فيلتهمونه ساخنًا لا ذعًا! وإذا حان موعده تركوا حاشية السعد، ومتون الفقه والنحو، وعجّلوا بالتهام الطعام قبل الفوات، إن روح الفكاهة تشيع فى القصيدة ولكنّ نسجها البحترى ألبسها جمالاً رصينًا تهفو إليه النفوس، ولنستمع إلى طاهر إذ يقول:

ياسقى الله بالزقازيق أيّا	مَ صباى النواضر العطراتِ
مَنْ تُرى أيقظ الخواطِرَ حولى	وأثارَ المطوىّ من صفحاتى
وأعاد الأيّام والمعهد السّا	مق مسروجا بالنجوم الهداةِ
الفحِول الأعلامِ أمثلة الزهد	و شيخانهِ العدول الثقاتِ
ورفيق كأنه هامش الشّرح إذا صا	ت يمضغ القافاتِ
السرّاج العليل يشهق فى محر	ابه والبلى يروح وياتى
ونضِيج مفلفل لاذع الطعمة	يشوى أصابعى ولهاتى
هوزاد المسافرين بلازادِ	وقوت المحتاج للأقوات
يتصبّى المجاورين فنصبّ	عليه كالفاتحين الغزاة
اترك المتن، واطوِحاشية السّعد	وأدرك شيخون قبل الفوات
أنا مِن مازن، ومازنُ منّى	والليالى القمراء من صدحاتى

طاهر والشعر:

نشأ طاهر شاعرًا مطبوعًا، وأخرج من الدواوين عدة أجزاء فى عهد الطلب، وانتشرت له سمعة ذائعة فى آفاق الشعر، وكان المظنون أن نفسه الشعرى سيمتد حتى يصبح من أعلام الشعر البارزين، ولكنّ حلقات ألف ليلة وليلة التى استهلكت أوقاته على مدى ثلاثين عامًا فى الإذاعة ثم فى التليفزيون قد صرفته إلى المكسب الرابح، والصيت المدوّى، ولا أنكر أن ليلات أبى فاشا ذات فن ناقد، وتصوير معبّر، إذ كان يعالج شئون الحاضر فى قصص الماضى معالجة ذكية بارعة، وماحازت هذه الحلقات إعجاب السامعين إلا لحيويتها الدافقة، وصورها الحيّة النابضة، ولكنّ ذلك كلّه لايفى بما خسره طاهر حين ترك رياض الشعر، وهو بُلْبُلها السّاحر، وقد سجّل هذه الحقيقة أكثر من مرّة فى أحاديثه الإذاعيّة، والفنان لايملك أمره فى أحيان كثيرة، حيث تسيّره الأقدار.

وطاهر ظريف بمايفعل، وبما يروى معًا، فهو قبل كل شىء قارئ ناقد يحفظ تراث العرب فى النوادر، ويروى مايحفظ فى مجلسه بأسلوبه الخاص، فيزيده رونقًا على رونق، وأذكر أننا تداولنا ظرفاء الماضى ذات ليلة فذكرت له فيمن ذكرت أبا السائب المخزومى، فعضّ على شفته بناجذه، وقال: لقد تردد اسمه أمامى فى صفحات متفرقة، وإياك أن تبحث عنه لتجلوه قبلى، لأنه صديقى، ومضت الأيام، وتشاغل طاهر عن أبى السائب، وتركتُه له فلم أخصّه بدراسة، فهل أعود؟

هذا عن روايته الأدبيّة وظرفه بما حفظ، أمّا ظرفه بما فَعَلَ من النوارد فأغربُ وأعجبُ، لأنّه نشأ مرحًا بفطرته، يكاد يطير من خفة روحه، وما صاحبه أحد إلا شهد من طرائفه العملية ماتبتسم له القلوب قبل الشفاه، فليت أصدقاءه يحرصون على تسجيل ما يعلمون، إذ لم يكن هذا النديم الفكه متكلفًا يتصنع، بل كانت موافقه الضاحكة، ومفارقاته الباسمة فيض فنان مطبوع، تصدر عنه كما يصدر الضوء عن الشمس، والعطر عن الورد، وقد صحبته فكاهته من فجر حياته حتى حان قطافه، وسأحاول أن أتتبع نذرًا منها وفق ترتيبها الزمنى، وهى محاولة تقدّم الضئيل القليل ليدل على الكثير الحفيل، وحسبى ذاك.

فى معهد دمياط:

كان والد طاهر تاجرَ أحذية يريد أن ينشأ فتاه كما نشأ، ولكن الطفل الناهض تعلم القراءة سريعًا، وحفظ القرآن، ثم التحق بجامع البحز، مقر المعهد الدينى بدمياط، فلفت إليه الأنظار بتفوقه الذى لم يفارقه طيلة حياته، وكان الطلاب يجلسون بالمسجد على الحصير، فأراد أحد الأثرياء أن يُحضر لولده الطالب (شلتة) يجلس عليها، ورأى فضيلة شيخ المعهد الأستاذ الكبير عبد الله دراز أن ذلك امتياز فريد لايليق، فعرض الوالد الثرىّ أن يحضر أربع (شلتات) تُوزّع على من يختار شيخ المعهد من النوابغ، وكان طاهر فى السنة الأولى أول فرقته فاختير، وسُلّمت له (الشلته) ولكنه فى اليوم الثانى لم يحضرها، وجلس على الحصير، فاستجوبه المسئول عن النظام، فقال طاهر: إنه باعها وصرف الثمن!! وأحضره شيخ المعهد، وكان أبًا عطوفًا فسأله: كيف تبيع ماليس لك؟ فقال طاهر: لقد قلتم إنّها لى، وتسلمتها لتصبح ملكى، فأردت أن أتثبت من ذلك؟ لأعرف مبلغ صدقكم! وكانت النادرة الأولى للطالب الصغير.

فى معهد القاهرة الثانوى:

أتمّ طاهر تعليمه الابتدائى، وقد ظهرت بواكير شاعريته، فذهب إلى المعهد الثانوى بالقاهرة، ولم يمض نصف عام حتى مات شوقى أمير الشعراء، فاجتمع طلاب المعهد بالفناء، وخطب فيهم طاهر داعيًا للذهاب كى يشيعوا الشاعر الكبير، وفوجىء شيخ المعهد بما عدّه خروجًا على النظام، فرفع الأمر إلى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، طالبًا فصل الطالب، واستجاب الشيخ الظواهرى، فصعب الأمر على طاهر، وتوسّل بالدكتور محمد غلاب صاحب مجلة النهضة الفكرية، فشفع ملحا، ولكن شيخ المعهد أصر، فكان الحلّ أن ينقل طاهر إلى معهد الزقازيق.

وفى أيامه بالقاهرة، ذهب الشاعر الناشئ لزيارة الأهرام وأبى الهول، فصادف

أن رأى سائحة أمريكية حسناء تقف أمام التمثال متعجبة، فبهره منظرها، وأنشأ قصيدة قال فيها:

يكاد أبو الهول لولا الجلال ... يُعربد ممّا رأى حولَهُ
وكم سبُعٍ قُدّ من صخرة ... يحبّ الجمال ويصبوُ لَهُ
وأوهمها أنه كالجماد ... لتأمنه فتطيل الوقوفْ
ولولا مخافتهُ أن تخاف ... لقام يدقّ لها بالدفوفْ

والتصوير فى البتيين الأخيريْن رائع، وقد عرض طاهر قصيدته على بعض زملائه فحسدوه، ورموها بالضعف، فسألَ مَن أكبرُ شاعرٍ فى مصر بعد شوقى؟ فقيل: إنه خليل مطران، فسارع الشاعر المبتدئ للقائه وعرض عليه القصيدة، فصفق شاعر القطرين معجبًا، فقال له طاهر: اكتب بخطك أن القصيدة جيّدة، فاستجاب الشاعر الأكبر، ونشأت بينهما علاقة أدبيّة ممتازة، كان من أثرها أن كتب خليل مطران مقدمة ديوان (الأشواك) الذى أصدره طاهر فيما بعد.

فى معهد الزقازيق:

انتقل طاهر إلى معهد الزقازيق، وطارت له شهرة فى الأدب نظمًا ونثرًا، ولكن عبثه الفكاهى لم يتركه، فقد تقدّم يؤم الطلاب بمسجد المعهد فى صلاة العشاء، وعثر به القول، فأخطأ فى الآية الكريمة التى تلى الفاتحة، ثم أخطأ فى الركعة الثانية، فشغب عليه بعض السامعين، فاندفع مغيظًا وترك الصلاة، وبلغ الأمر شيخ المعهد فأنب الطالب دون أن يسيئه بعقاب، ولكن أحد المدرسين بَرِمَ بما صنع المصلّى النزق، وتوعده بالسقوط فى الامتحان الشفوى آخر العام، وفوجئ طاهر بأنه سيمتحن فى لجنة هذا المتوعد المغيظ، فامتثل، ولكنّه وقف على الكرسى دون أن يقعد، وجعل يصرخ بالإجابة، فانزعج الحاضرون، وأقبل الأستاذ محمود أبو العيون شيخ المعهد إذ ذاك، فقال له طاهر: هذا الشيخ قد حلف أنه سيسقطنى،

فأردتُ أن أجيب بصوت مرتفع ليسمع الناس جميعاً ويعرفوا صحة الإجابة، فضحك أبو العيون، وحضر النقاش جميعه، إذ أجاب الطالب ببراعة، وفاز فى الامتحان.

فى القاهرة ثانياً:

عاد طاهر إلى القاهرة بعد أن نال الشهادة الثانوية، والتحق أوّلا بكلية اللّغة العربية حيث قضى بها عامًا قبل أن يغادرها إلى دار العلوم، ومن طرائفه المتواترة أنّه ذهب ذات صباح للكلية، وهو يلبس الجلباب والطربوش، فأنكر الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الكلية خروجه على الزى المألوف، وألزمه بأن يحضر غداً بالعمامة والكاكولة، وفوجىء الطلاب فى الصباح التالى بطاهر يأتى إلى الكلية وقد لبس الكاكولة على جسمه العارى، ووَضع العمامة على رأسه قائلا: إن الشيخ حمروش طلب حضورة بالكاكولة والعمامة فقط ولم يذكر شيئًا من الملابس الأخرى، وعلا الهرجُ، وأحسّ الطالب أن الشيخ سينتقم من هذا العابث، فخرج سريعًا قبل أن يمثل بين يديه.

وفى دار العلوم ذاع له صِيتٌ بالأدب والفكاهة، وقد جاءه زميله الطالب محمد هارون الحلو حزينًا يعلن أنه رسب فى الامتحان ويخاف غضب والده، والطالب دمياطى كطاهر، وكانت أسماء الناجحين من الطلاب تنشر حينئذ فى جريدة البلاغ اليومية، ولطاهر صلة بها، فقال له طاهر، لابأس، فسأحضر من الكلّية قائمة الطلاب، وسأدرج اسمك بين الناجحين، قبل أن أذهب بها إلى جريدة البلاغ، فرحّب الحلو بالفكرة، وكتب طاهر اسم صاحبه زاعمًا أنه سقط سهواً، واستدركته إدارة الكلية، وظهرت البلاغ لتنقذ الطالب من غضب أبيه، ويضيق المقال عن سرد دعاباته مع أساتذته فى دار العلوم، ومن أظهرهم حينئذ الأديب الكبير محمد هاشم عطية الّذى ازدحم صدر طاهر بذكرياته عنه.

فى منزل القاياتى:

يتحدث طاهر دائماً عن أستاذه الشاعر الكبير الأستاذ حسن القاياتى، لأن منزله

العامر بالقاهرة كان مأوى الطلاب وذوى الحاجات، كما كان ندوة كبرى يؤمها كبار رجال السياسة والأدب والفن، وفى هذا المكان الرحب عرف طاهر أساتذة مصر الكبار، من أمثال منصور فهمى، وعبد العزيز البشرى، وزكى مبارك، والهراوى، وأحمد الزين، وأحمد ماهر، ومحمد صبرى أبو علم، وقد روى طاهر عن الشاعرالقاياتى نوادر رائعة لوجمعت لأمتعت وبهرت، فالقاياتى عَلَمٌ فى جيله، وكان عضوًا نابها بمجمع اللّغة العربية، وعضوًا بمجلس النواب، وله بزعيم مصر الرئيس الجليل مصطفى النحاس صلة وثيقة.

يقول طاهر ـ فيما يرويه عن القاياتى ـ لقد كان الأستاذ الكبير حسن القاياتى فى زيارة الزعيم الجليل بمقر مجلس الوزراء، فحضر بعض الوجهاء، وقَدَّمَ للزعيم خاتَمًا يحملُ صورة رمسيس فى فصّه، وكانت الهدية تحفة فنية رائعة ذات مدلول تاريخىّ، فخطر للقاياتى أن يرتجل أبياتًا قال فى نهايتها مخاطبًا مصطفى النحاس:

أيملكُ رمسيس هذى البلاد وتملكُ رمسيسَ فى أصبعك؟

ولكنّ النحاس قال بصوت مرتفع: أستغفر الله ياشيخ حسن، المُلك لله وحده! مَنْ نحن؟

قال القاياتى وقد أعجبنى نقد الزعيم لأنه أصاب سدادًا، وصحَّح خطأ، هكذا قال طاهر.

أصدقاء كثيرون:

لطاهر أصدقاء كثيرون يعتزون بصداقته، ويعرفون من نوادره الضاحكة المضحكة ما نود أن يُسجّل قبل أن يضيع، ومن طرائفه معى أنه كان يزور المنصورة سنويا ليقرأ الفاتحة على قبر زوجته الراحلة، فَفوُجئت به يأتى إلى كلية اللغة العربية حيث أعمل، ويقول فى ابتسام: «المشوار راحْ أوَ نْطَة» قلتُ: لماذا؟ قال: حضرت لزيارة قبرها كما تعلم، فوجدت شابا وشابّة يتناجيان على مقربة من الضريح، فرفضت أن أزعجهما، وقلت: لقد ضاقت بهما المنصورة، فلم يجدا غير

المقبرة، ثم آتى من القاهرة لأجعل المقبرة تضيق بهما أيضًا! مستحيل، فقلت: هوّن عليك، سأزور القبر نيابة عنك، فقال فى جدّ: احلف باللّه، فحلفت، فقال إذن أسافر وأنا مستريح!

وطرفة أخرى: ذهبتُ ذات ظهيرة إلى منزله بالعباسيّة، والوقت وقت غداء، فأحضر كيلو من التفاح، وقال هذا غداؤك، أما أنا فعندى رُبع دجاجة صغيرة سآكلها مع نصف رغيف، فقلت: موافق. وبعد أن أكلنا وتناولنا الشّاى، سألنى قائلا: أينا الكاسب؟ أنا أم أنت؟ قلتُ: أنا، قال: كلا، لقد ضحكتُ عليك، أنت ستجوع بعد خمس دقائق لأن التفاح لايشبع، أما أنا فلن أجوع إلا بعد العشاء!

هذا قليل من كثير! وقد أعود إلى حديث طاهر فى غير هذا النطاق.

* * *

obeikandl.com